أبونا تادرس

أو

القديسة ثيؤدوره الإسكندرية التائبة

يوسف جميعان

١٩٦٩

« بسم الآب والابن والروح القدس اله واحد آمين »

غبطة أبينا المكرم الأنبا كيرلس السادس
بابا وبطريرك الكرازة المرقسية

مقدمة

أصدرنا كتابنا « قديسات تائبات » وضمناه مؤقتاً - ضمن هذه السير - سيرة القديسة ثيؤدوره الاسكندرية التائبة ، مختصرة حيث اننا لم نجد لها مرجعاً سوى ما ذكره « Cheneau » في كتابه « Les Saints d'Egypte » الجزء الثاني من ص ٣٢٤-٣٢٩ ، وقد أوضحنا ذلك وكنا نرغب في أن نقدم هذه السيرة مفصلة وكاملة من كل جوانبها قدر الإمكان .

ولما حانت الساعة ولكل شيء تحت السموات وقت وبتدبير من الرب المتحنن إهتدينا إلى سيرة هذه القديسة شاملة في مخطوط نفيس بدير السريان . وإننا نقدم لك أيها القارىء العزيز في ثوب جديد هذه السيرة العطرة وفيها عظة أيما عظة عن أثر الانغماس في المسرات العالمية الزائلة وما تجره كثرة المجاملات والمعاشرات والحفلات الترفيهية التي لا نعمل لها حساباً ، والتي في غمرتها كثيراً ما نأكل ونشرب من مائدة الشياطين ولدنس حياتنا الروحية - إذ ننسى أن نشرك الرب يسوع في أفراحنا وفي موائدنا وفي اجتماعاتنا وفي أحاديثنا ، ونترك لأنفسنا العنان

في مجاراة التيار الشرير الجارف ونبرر ذواتنا ونقول ماذا نعمل ونحن إنما نسلك في هذا العالم ولا نستطيع أن نخالف ما جرى عليه عامة الناس؟!! ولا ندري أن هذه الأمور- رويداً رويداً- قد تنتهي بنا إلى كارثة خلقية وإلى سقوط مروع لا يرضاه الله لأحد ولا يرضاه من أحد، وعندئذ نتجرع كؤوس المرارة والندم والحزن والحسرة والألم ... وإذ نحس بفجيعتنا نبتدىء نخاطب ذواتنا بينما قلوبنا تتمزق ألماً وحسرة، كيف أنه بسبب أمور صغيرة في بادىء الأمر كالمزاح أو الأفكار الشريرة أو النظرات غير المقدسة أو عدم التعفف في الزي ومجاراة التيار قد انهار صرح حياتنا الروحية ووقعنا في الخزي والفضيحة والعار، في الذل والامتهان، في انكسار النفس وفي الهزيمة الروحية والفجيعة المؤسفة، وتكون مرارتنا بالأكثر حينما نرى أنفسنا بمفردنا، وقد هرب منا الكل، ولا نرى سوى آثامنا المخيفة تمر أمام عيوننا ولا نستطيع الإفصاح عما اقترفناه من ذنوب ...

إن في قصة هذه المرأة أبلغ عبرة فبعد أن كانت متزوجة ومشهورة بطهارة سيرتها، ورغم أنها من نبع طيب ومن عائلة غنية وشريفة ورغم أنها تربت تربية حسنة، وكانت سيرتها نظيفة وهي عذراء سقطت وهي متزوجة لعدم تحفظها وسهرها على

حياتها الروحية ... وسلمت نفسها لجزار الشهوات الجسدية الوقح، ابليس اللعين، **ذلك الجزار الذي يذبح لا بألم لكن بلذة**... والذي يحرقنا بنار الشهوة فنستلذ لظاها.

سقطت الزوجة وما أن أفاقت من سكرات الخطية القاتلة للنفس والجسد والروح - حتى عرفت كل شيء، وأيقنت أن الجرم الذي اقترفته خطير. تحول منزلها الذي كان مباركاً مملوءاً فرحاً وابتهاجاً ترفرف عليه ملائكة السلام إلى شبه مأتم دائم.

أذلتها الخطيئة وأفسدت حياتها وخربت بيتها.

لبست العار والخزي والفضيحة مثل الثوب ...

لم تستطع النظر إلى زوجها أو الحديث معه.

لم ينقطع الحزن من قلبها الممزق... تنبعث من أعماق نفسها آهات وتوجعات لا يستطيع عقل بشري أن يصفها.

صارت تصرخ وتولول كل حين قد أخطأت... قد أخطأت.

يحدثها زوجها ماذا حدث؟ ما الذي يؤلمك بهذه الصورة، ما لي أرى وجهك مكدراً ونفسك متهدمة، المنزل غير مرتب وكل شيء فيه تغير ويوحي بأن حادثاً هاماً قد وقع وأن أمراً له خطره قد سيطر على حياتك... أما هي فكانت تلوذ بالصمت الكامل...

عزمت على أن تتوب التوبة الحقيقية التى لاغش فيها - توبة المرأة الزانية التى جاءت من وراء يسوع باكية وكانت تقبل قدميه وتمسحهما بشعر رأسها ، التوبة التى لا رجوع بعدها إلى الخطيئة ، وقبلها الرب المتحنن على جنس البشر ، ذلك الذى بكى على لعازر ، الذى يشفق على شقاوتنا والذى يعرف ضعف طبيعتنا البشرية ، قبلها الرب يسوع كعظيم رحمته ، قبلها يسوع مريح التعابى - الذى عندما يهرب منا الكل يأتى ليعيننا ويقول لنا كما قال فى القديم لذلك المفلوج « أترید أن تبرأ » ، لأنه هو حامل خطايا العالم كله ، الذى كان يعاشر الخطاة والعشارين والذى قال إن فرحاً يكون فى السماء بخاطىء واحد يتوب أكثر من تسعة وتسعين باراً لا يحتاجون إلى توبة ، الذى عندما تأتى إليه تائبين يحملنا برحمته الواسعة ويظلل علينا بظل جناحيه كما أعلنا من مثل الخروف الضال الذى لم يضربه لما وجده بل حمله على منكبيه فرحاً ، ومثل الإبن الضال الذى أسرع أبوه لاستقباله. هو يسوع الحبيب الذى كان ولم يزل يفتح بابه لكل خاطىء يريد الرجوع إليه لأنه يريد أن جميع الناس يخلصون وإلى معرفة الحق يقبلون.

بعد هذا العزم الراسخ تركت المرأة كل شىء وانطلقت إلى إحدى الديارات قرب الاسكندرية حيث أكملت بقية أيام حياتها

فى أعمال النسك والعبادة وتدرجت فى مراتب الفضيلة . تزيت بزى الرجال وكانت تعرف « بالراهب تادوس » .

أخيراً تنيحت بسلام وأصبحت من القديسات الشهيرات فى الكنيسة ، وقد ورد خبر نياحتها تحت اليوم الرابع عشر من شهر بؤونه فى مخطوطة سير القديسين بدير البرموس ، وكتبت سيرتها تحت عنوان « سيرة القديسة البارة أمنا تاودورة الاسكندرية » ، بركة صلاتها تكون معنا ولربنا المجد دائما أبدياً آمين .

يوسف حبيب

† † †

١ – عذراء هادئة عفيفة

ولدت بالاسكندرية فى القرن الخامس من أبوين شريفين منحهما الرب غنى وخيرات زمنية كثيرة . كانت بارعة الجمال فى الخلق والخلق ، تعيش عيشة طاهرة هادئة ، تتمتع بكل بركات الغنى التى أفاضها الرب على عائلتها التى كانت تخاف الله . كانت تنعم بصفاء الروح وبالحياة المباركة الهنيئة يرفرف عليهـــا ملائكة السلام ويظلل عليها الرب ويبسط رضاءه عليها .

كانت تواظب على الصلوات وحضـــور القداسات ، تحب مطالعة الكتاب المقدس ، تحرس حياتها الروحية كما بسياج من حديد ، تهتم بممارسة وسائط النعمة ، لا تسلك فى طـريق الشر وتهرب من الاسباب التى تسوق إلى الخطية ، لا تتزين ولا تجارى تيار العالم ، وكانت ملتصقة بالرب يسوع حاملة نيره الحلو ...

وهكذا كانت سنو شبابها مملوءة طهارة وعفة ، لم يعرف لها سقطة ولم يكن لها ماضٍ فى الخطية .

(١) يجب التفرقة بين هذه السيرة وسيرة ثيؤدوره الشهيدة بالاسكندرية التى استشهدت سنة ٤٣٠ م ومعها القديس ديديموس الشهيد – (ثيؤدورة معناها موهبة الله – كلة يونانية ثيو = الله ، دورا = عطية) .

٢ – زوجة صالحة أمينة

بلغت الفتـــاة سن الزواج وكان والداها يخافان عليها من تيارات الشر الجارفة ففكرا فى تزويجها حفظاً لطهارتها وقداسة سيرتها خاصة وانها كانت تمتاز بجمال بارع تحوطها مظاهر الثراء والغنى . زوجاها من شاب غنى من عائلة مباركة حسنة السمعة ، وكان تقياً جداً ، قبلته الفتاة زوجاً عن رضى وارتياح كبير ، وكان الزوج سعيداً لتوفيقه إلى زوجة صالحة يترنم بقول سليمان الحكيم « من يجد زوجة يجد خيراً وينال رضى من الرب » أمثال ١٨ : ٢٢ ، وكقوله أيضاً : « امرأة فاضلة من يجدها لأن ثمنها يفوق اللآلى ، بها يثق قلب زوجها ... تصنع له خيراً لا شراً كل أيام حياتها ... تشتغل بيدين راضيتين ... سراجها لا ينطفىء فى الليل ... تبسط كفيها للفقير وتمد يديها إلى المساكين ... العز والبهاء لباسها ... تفتح فمها بالحكمة وفى لسـانها سنة المعروف ، تراقب طرق أهل بيتها ولا تأكل خبز الكسل ، يقوم أولادها ويطوبونها . زوجها أيضاً يمدحها » أمثال ٣١ : ١٠-٢٨ .

أمضى الزوجان الشابان أياماً سعيدة كأنها نسيج من الذهب والحرير يتمتعان بالمسرات الطاهرة والاتحاد المقدس وسط كل

مظاهر الغنى مع خوف الله وإكرام الجميع . استمرا على ذلك زماناً ، وكانت ثيؤدوره تمتاز بمحبتها للفقراء والمساكين وكانت تتصدق عليهم ، ترتاد كثيراً دور العبادة والكنائس .

لكن العدو كان يسهر حاسداً ويدبر لهما المكائد لإفساد حياتهما مثله مثل الحشرة الدنيئة التى تهاجم خفية جذور الورود الجميلة فتفسد رونقها وتذبلها .

كثرة الاصحاب تخرب النفس أم ١٨: ٢٢

فى وسط مظاهر الغنى وفى وسط الحفلات والاجتماعات والليالى الترفيهية تكاثرت الزيارات والاهتمامات العالمية ، الأمر الذى يحدث كثيراً فى حالة الثراء ، على رأى سليمان الحكيم: الغنى يُكثر الأصحاب والفقير منفصل عن قريبه أم ١٩ : ٤ .

تمكن شاب غنى جداً ومن عائلة كبيرة من التعرف بها وزيارتها ضمن الزائرين - وكان اسمه يوحنا - وروويداً وويداً بدأت العلاقة الطاهرة تنمو بينهما بحكم ظروف الحياة المتشابهة التى كانوا يعيشون فيها ولم يكن يدر بخلد الزوجة ثيؤدوره أو زوجها الطيب القلب أن هذا التعارف سوف ينقلب وينتهى بمأساة وكارثة خلقية .

بدأ الشاب ينظر إلى ثيؤدوره نظرة احترام وتكريم لزوجة شريفة كما يفعل الكثيرون وكان يبادل زوجها عبارات الإخلاص والوفاء والمودة الأخوية ... فى لباقة ونباهة ، وكانوا يلسون فى حديثه ذكاء وفطنة وفى ابتسامته الخفيفة ونكاته الفريدة أدباً وحياء ... لكن فى وسط كل هذا كانت هناك ثغرة خطيرة هى أن هذه التسلية وهذه الموائد كان ينقصها ذكر اسم السيد المسيح وحضوره فى الوسط فتهرب الذئاب من بين الخلان ، ينقصها أن تكون كما قال عنها القديس بولس الرسول « إن كانت تسلية ما للمحبة ، ان كانت شركة ما فى الروح ، إن كانت أحشاء ورأفة فتمموا فرحى حتى تفتكروا فكراً واحداً ولكم محبة واحدة بنفس واحدة مفتكرين شيئاً واحداً ... فليكن فيكم هذا الفكر الذى فى المسيح يسوع ربنا أيضاً » فيلبى ٢ : ٢ - ٢٠ .

كانت الفتاة المسكينة واهمة إذ ظنت انها تعيش حياة مرحة ونسيت أنها دخلت من الباب الواسع الذى يؤدى إلى الهلاك وكثيرون يدخلون منه ، لا بل لم يكن يخطر لها على بال أن هذا الطريق يؤدى إلى الهاوية ، كأن أمر السقوط يتعرض له فريق دون آخر . نسيت فعل الحية الماكرة وخداعها التى اسقطت منذ القديم أبانا آدم الذى كان فى الفردوس متنعما وطرد من الجنة .

كان الشاب من عادته أن يحضر كثيراً لزيارة زوجها حتى توطدت هوى الصداقة بينهما وبين زوجته أيضاً ، وكان الكل يأنس فيه الإخلاص والود والادب الجم وصفاء الضمير وعفة النفس والبساطة والطهر ومحبة خدمة الآخرين ...

استغل عدو كل بر هذه الظروف وقاتل الشاب بقتال الشهوة الرديئة نحو الفتاة . وبعد أن كان فكره طاهراً خدعه إبليس بتصورات شريرة وأفكار فاسدة وكان يستسلم لهذه الافكار فلم يستطع أن يسيطر على التجربة - ورويداً رويداً وُجدت الدالة القوية بحكم كثرة الزيارات ، حتى أنه كثيراً ما كان يقوم بالزيارة فى غياب الزوج ، والزوجة المسكينة لا يخطر على بالها أمر ولا يراودها إلى هذه اللحظة أدنى شك من جهة زياراته .

وعلى توالى الأيام بدأت الشهوة تقوى على الشاب . نسى مركزه ومركز عائلته ، نسى كرامته وسمعته ، نسى أنه بالخطيئة يسىء إلى نفسه وإلى الله كما يسىء إلى عائلته وإلى وطنه وإلى هذه الفتاة وزوجها ويحول حياتهما إلى جحيم ... نسى كل شىء لان الشهوة أعمت عينيه وصار كالبهائم مشابها ، وكان يفكر بكل تركيز فى الطريقة التى بها يستطيع أن يقتل شرف الزوجة ويتمم رغباته الدنيئة ...

وفى إحدى الليالى وكان الزوج غائبا - على سفر - رأى الشاب أن الفرصة موانية له لفعل الشر ، تحرك الشاب وتحدث إلى الزوجة ليؤدوره حديثاً غير لائق ولم يستح أن يعرض عليها مشورة إبليس النجسة ، لكن ليؤدوره كانت ضابطة لنفسها وكانت هذه الأقوال المذمومة صدمة لها ، وقعت فى قلبها موقعاً سيئاً فصدته فى عزة وكرامة وقوة ووبخته فى عنف وزجرته فى شدة وطردته شر طردة .

† † †

٣ – زوجة شريرة فاسقة

لكن ماحدث بالنسبة للشاب الوقح المستهتر الخائن والدنيء لم يكن كافياً لردعه لأن الشهوات كانت قد استولت عليه ، أخذ يتمادى في التفكير في الشر ، وكانت إهانته وطرده دافعاً له بالأكثر للتوغل في الشر بدلا من النكوص عنه . أخذ بعدئذ يدبر أمراً ليسقط هذه الفتاة ويفسد حياتها ، كان يفكر في الوصول إلى غرضه الشرير وتفتحت أمامه حيل الشر . وهذا ما يحدث بالنسبة لكل سائر في الطرق المعوجة . رأى أن يعيد التودد إليها – بعد انقطاعه فترة من الزمن – باستخدام أساليب شيطانية : أعاد الكرة وكانت الفتاة في حالات فتور واسترخاء روحي ، وكانت لاتزال تعيش وسط دوامة كثرة الاهتمامات والمشاغل والأفراح العالمية ولم تأبه بالحادث الذي وقع في طريقها . كان الشاب يحضر مع المعارف والأصدقاء القدامى للزيارة كلما وجد الفرصة سانحة وكأن أمراً لم يحدث ناسياً كل شيء ، وكانت الشهوة تأكل قلبه أما هي فكانت تستحي أن تفصح لأحد عن شيء ، كما أن العدو تدخل وبدأت الفتاة هي أيضاً تفكر وتدنس تصوراتها وركز إبليس القتال عندها فأحبت الكسل والانحلال الروحي الذي انتابها وتغلغل إلى أعماق نفسها وأهملت كل وسائط النعمة

وألقت كل الأسلحة التي تستطيع أن تحارب بها إبليس .

لقد فاتها قول ابن سيراخ : « يا بني إن أخطأت فلا تزد بل استغفر عما سلف من الخطأ . إهرب من الخطية هربك من الحية فإنك إن دنوت منها لدغتك ، أنيابها أنياب أسد تقتل نفوس الناس ، كل إثم كسيف ذي حدين ليس من جرحه شفاء » ابن سيراخ ٢١ : ١ – ٤ .

بدأت الزيارات تتكاثر والأحاديث تطول ، وفي ليلة ما بعد سلسلة من اللقاءات ... سقطت الزوجة ، وما أسهل السقوط وما أيسره ...

سقطت الزوجة المصون السقطة المروعة وتدمرت حياتها الزوجية والروحية وتحطم عش سعادتها .

تحولت من إمرأة صالحة وزوجة مخلصة إلى إمرأة شريرة زانية أشد قبحاً من المرأة البرصاء ... فيا للهول ويا للفجيعة...

تمم عليها بعض أوصاف ابن سيراخ للمرأة الشريرة حيث قال :

« المرأة الشريرة نير قلق ومثل متخذها مثل من يمسك عقرباً » ص ٢٦ : ١٠ .

« كل ضوء بازاء ضوء المرأة خفيف » ص ٢٥ : ٢٦ .

«ان لم تمسك طوح يدك تخزيك أمام أعدائك، فاقطعها عن جسدك لئلا تؤذيك على الدوام» ص ٢٥ : ٣٥، ٣٦.

«خبث المرأة يغير منظرها ويرد وجهها أسود كالمسح، رجلها يكمد بين أصحابه وإذا سمع تأوه بمرارة» ص ٢٥ : ٢٤، ٢٥.

«لا رأس أشر من رأس الحية، ولا غضب أشر من غضب المرأة. مساكنة الأسد والتنين خير عندي من مساكنة المرأة الخبيثة» ص ٢٥ : ٢٢، ٢٣...

حزن وخزى وعار

بعد السقطة المروعة تراكم الحزن والخزى والعار على ثيؤدوره كما هو الحال عقب السقوط، وبعد أن كانت معروفة بطهارتها ومشهورة بنقاوتها وبرارتها هبطت إلى الدرك الأسفل، فاحت رائحة الخطية كما تفوح رائحة النتن من الجسد الميت، وامست بين ليلة وضحاها مثل الجيف الميتة تنهشها الحيوانات المفترسة.

أفاقت من سقطتها ووجدت نفسها قد تدنست، تملكها ندم قاتل، تجرعت كؤوس الحزن وصارت تبكي بكاء مراً وتمزق قلبها هلعاً وفزعاً وكان لجريمتها مفعول السم يسري ببطء في جسمها ويسمم كل حياتها ويسيطر على تفكيرها ليل نهار، صارت مسرات الحياة ومباهجها مصدر لكد وألم، كانت تصرخ من أعماق

قلبها الممزق في تأوهات مرة دون أن تستطيع النطق بكلمة واحدة، كانت تسجد إلى الأرض وتلطم وجهها وتندب مصيرها وتصرخ مولولة:

«ارحمني أيها المتحنن كعظيم رحمتك، يا إله الرحمة والرأفة التجئ إلى مراحمك لأنه لم يبق لي رجاء ولا أمل. نعم انني قد أخطأت واذنبت لكنني صنعتك وجبلتك فأنت قد رسمت صورتك البهية في هذه الطبيعة العديمة الشكر وأنا قد سودتها بخطيئتي»...

«ويحي أنا المسكينة. لقد كنت قبلا في كرامة وسلام، كنت أعيش تحت ظلال غروس الفردوس الشهية المباح أكلها والتلذذ بها والآن أسهر لأرى الأشواك... أية تعاسة كالجبلة المنفصلة عن جابلها، إنها كالجو الذي خلا من الشمس وأرخى عليه الظلام الحالك، كالعين التي جفت ونضب ماؤها، كالجسد الذي فارقته النفس»...

«إن تذكر سعادتي السابقة يثقل عليّ أحزاني الحاضرة وخياناتي الكبيرة التي سقطت فيها تجعل مصيبتي أبهظ مما احتمل».

«الآن أرى حقيقة نفسي. إني موضوعة تحت الموعد

والأحـــزان والضيقات والأوجاع ، أنظر إلى السماء حزينة والأرض تندب تعاستي... ويزيدني ألماً أن أرى باب فردوس النعيم مغلقاً والحربة النارية حارسة له » ...

«صرت بالحقيقة عدوة لك يارب فكيف أتبع بصري نحوك، وماذا يكون موقفي لو أتت ساعتي الآن وأنا في مثل هذه الصورة الدنسة الرجسة القذرة البشعة ... » ؟!!

† † †

٤- راهبة قديسة تائبة

لم تحتمل البقاء في العالم وصار كل شيء أمامها مراً وكريهاً. خرجت من منزل الزوجية ساعية نحو خلاص نفسها بعد أن اعترفت بكل شيء، وبعد أن أخبرت زوجها بخطيئتها لأن حياتها بعد سقوطها أصبحت مريرة وكان المنزل شبه مأتم دائم لا يسمع فيه سوى الأنين والبكاء... أرادت أن تذهب إلى مكان منفرد لكي تمارس أمور توبتها...

وفي إحدى الليالي الحالكة الظلام قصت شعرها وتزيت بزي الرجال وخرجت متخفية في جنح الظـــلام وقصدت دير «الإناطون» وهو يبعد عن الاسكندرية بتسعة أميال (في موقع الدخيلة الآن)[1]. ورجت الآب رئيس الدير أن يقبلها، ولكن

(١) ذكر Cheneau في كتابه "Les Saints d'Egypte" الجزء الثاني ص ٣٢٧ أنها دخلت دير « None »

" Anisi nomme parce qu il était au meuiréme mille d'Alexandrie ... " .

« وسمى هكذا لأنه كان في الميل التاسع للاسكندرية ... » .

أما مخطوطة دير البرموس فذكرت أنها توجهت إلى الثامنة عشر ميلا لرجال وهو ديره الأكتوذ يكاتون» وموقعه بجوار بلدة العامرية ويرجع تاريخه إلى القرن الخامس وكان عامرا في القرن السادس .

يختبر الآب مثابرتها تركها طول الليل عند الباب وكانت معرضة للبرد والحشرات المؤذية التى تجوب الصحراء أما هى فكانت دموعها تنهمر مدراراً وكانت تجهش بالبكاء كمن ينتدب أباه أو أمه ، كانت تستغرق فى العويل ولم تكن هذه الدموع لتجد أمامها ما يوقفها أو يمنعها . وما أن أشرقت شمس اليوم التالى حتى كانت عيناها قد تورمت من كثرة البكاء ...

خرج الرئيس وسائر الرهبان الإخوة لينظروا فى أمر هذا الراهب . سارعت المغبوطة وطرحت ذاتها على رجل الرئيس فأخذ بيدها ومضى بها إلى قلايته وقال لها :

« ما اسمك يا بنى ؟ » قالت له اسمى « تادرس »

فقال له الرئيس يا أخى تادوس إن هذه الخدمة متعبة وقاسية جداً من جهة الأصوام والصلوات والعمل وخدمة الإخوة واحتمال الإهانة وسهر الليل وصلواته وصلاة الرهبان جميعها ، قالت له ، الله يعيننى لأفعل هذا كله يا سيدى ولأنفذ كل ما تأمر به وأخدم سائر الرهبان . أخيراً قُبل تادرس فى الدير.

أمرها أن تسق البستان فأسرعت فى نشاط لتنفيذ الأمر . أمرها باعداد الحنطة للخبز ففعلت كل ما يلزم فى سرعة وهمة ،

كانت تعد أيضاً مائدة الرهبان وتخدم سائر الإخوة ، وتنفذ كل ما يطلب إليها من أعمال على الفور ، ولم تتأخر قط عن حضور صلوات الكنيسة . بعد كل ذلك كانت تذهب إلى قلايتها وتغلق بابها وتمارس صلواتها ، وكانت دائمة القرع على صدرها نادبة خطيئتها بدموع غزيرة وقلب جريح ...

وهكذا كانت خدمتها فى ذلك الدير لمدة ثمانى سنوات تعمل بلاضجر ولا إهمال ولاتراخ بل بنشاط واجتهاد وانسحاق قلب.

أما زوجها فكان حزينا كاسف البال لايدرى ماذا يكون مصيرها وكان دائم الصلاة والتضرع إلى الله بدموع حارة حتى تستريح نفسه المضطربة ويهدأ قلبه الثائر ... أخيراً فى غمرة التفكير والحزن رأى حلما كأن ملاكا نورانياً يقول له إذهب فى الغد إلى كنيسة القديس بطرس خاتم الشهداء وسوف تجدها على مقربة من بابها ولن تجد غيرها عند وصولك إلى الكنيسة .

فلما أشرق النور انطلق إلى هذه الكنيسة وحدث فى هذا اليوم بالذات أن أوكل رئيس الدير إلى « الراهب تادرس » (تيؤدوره) أن يأخذ جمال الدير إلى الاسكندرية لكى يحضر مؤونة الربيع ، وكان عليه أن يمر ناحية الكنيسة المذكورة .

حدثت المقابلة غير المتوقعة وعرف قائد الجمال الشخص الذى كان سائراً قرب الكنيسة . نظرت إليه وقالت فى نفسها الويل لى أيها الأخ الصالح ، الرب يغفر لى ماصنعته من الإثم وما سببته لك من أحزان ... أما الزوج لم يكن يظن البتة أن هذه هى زوجته وكانت لابسة زى الرجال ولم يعرفها إطلاقاً - لم يطرأ على قلبه أن تكون هى ميزدورة ، فقد تغيرت هيئتها تماما بسبب كثرة الأصوام والنسك والتقشفات التى أحنت ظهرها ... مرت بجانبه وحيته تحية السلام وانطلقت فى طريقها ، أما هو فعاد أدراجه مسلماً الأمر لله الذى بيده كل شئ .

رجعت ميزدوره إلى الدير وازدادت فى النسك والتقشف وطلبت إلى رئيس الدير أن يأذن لها بمزيد من الصوم الذى كانت معتادة عليه فقال لها الرئيس القديس « يا ابنى تادرس الله يقويك فى مخافة الله ... وأرشده إلى ما يلزم .

وفى السنة التاسعة من بقائها فى الدير طلبت الى أحد الشيوخ فى الدير وقالت له : « أسألك أن تطلب لى من الرئيس أن يلبسنى مسح شعر ، فتقدم الشيخ إلى الرئيس وقال له : « الأخ تادرس يطلب إلى قداستك أن تلبسه مسح شعر ، فأجاب الرئيس وقال

التادرس « الله يباركك يا أبنى تادرس » ، وصلى على مسح شعر وألبسه الإسكيم المقدس[1] » . فمجدت الله والدموع تنهمر من عينيها ، وكانت تداوم على الصلاة والمطانيات وكثرة النسك وتطلب إلى الرب أن يصنع معها رحمة كعظيم رحمته ويغفر لها خطيئتها المرة . . .

أما عدو الخير فكان يقاتلها قتالا مريراً وسمعته مرة يقول لها : آه منك يا زانية يا من خرجت من منزلك ومن عند رجلك وأقبلت إلى هنا لمقاومتى ، إنى سوف أجلب عليك ضيقاً عظيما وأحزاناً متكاثرة ... أما هى فكانت دوماً ترتمى إلى الأرض وتصلى ساجدة للرب يسوع طالبة منه بدموع ليلا ونهاراً أن يعينها على خلاص نفسها وينجيها من فم الأسد ...

وحدث أن احتاج الدير إلى حنطـــة ومؤونة زيت فقال الرئيس : « يا ابنى تادرس خذ الجمال وامض إلى المدينة وأحضر الحنطة والزيت وإن لزم الأمر أقض الليل فى دير قريب » ، فقضت الطوباوية وأدت عملها وعند عودتها من المدينة كان الوقت مساء فاقتربت من دير قريب وقرعت باب الدير ، ففتح لها البواب ودخلت مع الجمال وقضت القديسة ليلتها فى الدير إلى جانب الجمال.

(١) هكذا ورد بمخطوطة دير البرموس .

ولما كان الغد مضت القديسة تاودورة مع الجمال إلى ديرها وحدث أن أحد الفلمان فى هذه المنطقة إرتكب الزنا مع إحدى الجوارى وحان وقت حبلها فسألها أهلها من فعل بك ذلك ؟ فقالت إن الراهب تادرس لما اجتاز بالجمال ارتكب معى هذا الفعل ، ولما قالت لهم هذا مضوا إلى رئيس الدير وشرحوا قصة الفتاة والجريمة الشنعاء التى ارتكبها الراهب تادرس .

دعا الرئيس الراهب تادرس للحال وقال له كيف فعلت هذا الجرم الكبير الشنيع لما كنت خارج الدير أثناء المأمورية التى كلفت بها ؟ أجابت الطوباوية وقالت له اغفر لى يا أبى ... ثم أنهم طرحوا الطفل لرئيس الدير بعد أن أهانوا الرهبان ورئيسهم اهانات بالغة واعتدوا على الراهب البرىء تادرس بالضرب والقلم وهو صامت لا ينطق ببنت شفة .

ولم يكن هناك بد بعد هذه الجريمة الشنعاء من طرد الراهب تادرس (ثيؤدورة) خارج الدير مشيعاً بالحزى والعار والازدراء ومعه الطفل .

ثم أن ثيؤدورة أقامت خارج الدير وكان أسفل الجبل رعاة غنم حنن الرب قلوبهم عليها فأعطوها حصيراً وكانت تغذى الطفل

من لبن الغنم ... وظلت على هذا الحال زماناً وهى صابرة متحملة برد الشتاء وحر الصيف والجوع والعطش والتعب ...

وفى تلك الأثناء حدث مرة أن ظهر لها الشيطان فى شكل رجلها وقال لها أنت جالسة هنا وأنا كل هذه السنين فى تعب ، هلمى إنهضى معى إلى منزلك ولن أعود أذكر ما فعلته من الإثم ؟ ، وكان من عادتها مداومة الصلاة فلما رفعت يديها إلى السماء وهى تصلى للحال هرب الشيطان فشكرت الرب وكانت تطلب بدموع كل حين أن يخلصها من الشر ومن تذكاره الملبس الموت .

كان طعام القديسة من حشائش البرية وشرابها من ماء البحر الملح ، وقد تآنست بالوحوش ولم تقترب إليها ولم تؤذها، وكانت تقضى لياليها فى قلب الصحراء رافعة قلبها إلى الحبيب يسوع ليصنع معها رحمة كعظيم رحمته ولم تكن لتكف عن الصلاة .

وكان الرعاة يتعجبون من أمر هذا الراهب فما كانوا يرونه إلا مصلياً باكياً ولا ينام إلا يسيراً ... توسطوا لدى الرئيس والرهبان ليصفحوا عنه خصوصاً وانه قضى خارج الدير حوالى سبع سنوات .

قبلوه داخل أســـوار الدير ومعه الصبي ثم أن الرئيس أوصاه بضرورة العمل بقوانين صارمة وبأن تكون كل أيام حياته صـــوما قدام الله . أما ثيؤدورة فلم تخالف قط أمراً مما أوصاها الرئيس به وهي شاكرة راضية حتى بقيـة أيام حيـــاتها .

† † †

نياحـــة القديسة

حدث بعد هذه الأمور أن رئيس الدير رأى حلماً كأنه جالس وإذ به يختطف إلى أعلى وإذا صوت ملائكي يصرخ قائلا: « أنظر ... ولما التفت مضوا به إلى موضع لايقدر شيء من الخلق أن يصف مقدار مجده وأبصر هناك عرشاً موضوعاً وملاكاً واقفاً إلى جواره ، وعلى العرش كانت تجلس هروس وجهها يضيء بالبهاء فسأل من هذه فقيل له هذا هو الراهب تادرس ، ثيؤدوره ، الذي احتمل كل إهانة من أجل الرب ومكث خارج الدير سبع سنوات ـ ومعه الطفل ـ يتغذى من حشيش البرية ويشرب الماء الملـــح » ...

« لقد صبرت ثيؤدورة على ذلك لأنها كانت أخطـــأت ودنست مضجع زوجها وقد تابت التوبة الحقيقية ولم تضجر من العبادة لكيما ترث الحياة الأبدية ، ثم رأيت نفسي كأني في ديري » .

ولما استيقظ من النوم ومضى إلى فلاية الطوباوي وجد أنه قد تنيح بسلام وكان ذلك حوالي سنة ٥١٠م حيث حرر الموت ، وهو منفذ إرادة الله الصالحة ـ نفس ثيؤدوره ـ من سجن هذا العالم المملوء بالتجارب والخطايا .

وكم كانت دهشة رئيس الدير والرهبان مريرة لما أظهرت واجبات التكفين سر ميزدورة وكيف أنها كانت إمرأة - واحتملت صنوف الاهانات والازدراء باطلا .

بكى الآب رئيس الدير كذا الرهبان عليها وطلبوا إلى الرب بحرقة قلب وبدموع أن يغفر لهم خطيئتهم . علم الزوج أيضا بأمرها - حيث كان قد شاع الخبر في الدير وخارجه - وتحقق له أنها زوجته وأنها هي ذاتها التي كانت قد قابلته وهي تقود الجمال بالقرب من كنيسة القديس أنبا بطرس وكيف أنه لم يستطع أن يتعرف عليها على الإطلاق في ذلك الوقت لشدة نسكها وأصوامها وتقشفاتها ...

وشاءت إرادة الرب أن يحضر بسرعة إلى الدير وأن يشترك في جنازتها ، وأن يراها ميتة بالجسد بعد أن أرضت الرب بتوبتها الصادقة .

وتمضى المخطوطة تقول إنه بعدئذ التمس الزوج من رئيس الدير أن يقبله في ديره ليترهب ، وهكذا أمضى بقية حياته .

وتثبت العجائب العديدة التي أجراها الله بصلوات القديسة ميزدوره أي درجة عالية من الكرامة يعود اليها الخاطئ . التائب

الصادق في توبته ، والمغفرة الجزيلة التي يحظى بها كل من يرجع عن شروره التي اعترف بها وتاب عنها .

† † †

نرى من التاريخ أن مثل هذه القصص كان لها أثر واضح بالنسبة للأزواج فلقد كان القديس بولا البسيط تلميذ القديس أنطونيوس الكبير متزوجاً وخانته زوجته - ترك العالم وانطلق إلى الدير وقد منحه الرب مواهب عديدة منها إخراج الشياطين .

غالبا تتعذر الرهبنة لسبب أو لآخر كميل بعض التائبين والتائبات إلى ذلك فماذا يفعل الذين في العالم بعد سقوطهم في الخطايا ؟

يجيب القديس يوحنا الذهبي الفم في ميمر قاله على الذين يتخلفون في وقت القداسات وعن المائدة الطاهرة (ويقرأ نصف الليل من ليلة الخميس الكبير) هكذا قائلا : ...

لعل سامع يقول وكيف استطيع ان اكون في العالم في وسط اموره والتخلص من شروره فاجيبه انه ليس المكان هو الذى يخلص بل جودة الطريقة وتقويم النية هما سبب خلاصنا ، قد كان ادم في الفردوس كانه في الميناء لكنه غرق ، وكان لوط في مدينة سدوم

كانه فى اللجة وخلص ناجيا . . . وقد اوصى بالسهر فى الصلوات وحضور القداسات الالهية حضورا متصلا . . . عن المخطوطة ١٧٥ / ٢٩٦ طقس بالمتحف القبطى .

حقاً ما قاله القديس مار اسحق السريانى « ان الله يهمه العمل ولو كان بلا شكل ولا رسم » .

وفى القصة التالية التى وردت فى تاريخ القديس مكاريوس الكبير خير تفسير .

قيل إنه فيما كان القديس مكاريوس الكبير يصلى وافاه فكر العظمة والافتخار ... فسمع للحال من يقول له إنك لم تبلغ إلى الآن فضيلة إمرأة أرملة تسكن مع امرأة ابنها بمحبة كاملة فى مدينة الاسكندرية ويمكنك أن تشاهد فضيلتها عيانا ، فلما سمع الاب هذا الإعلان انقد بنار الرغبة لمشاهدة هذا الأمر وقام لوقته إلى الاسكندرية بعد أن زود رهبانه بالنصائح ، وبتدبير من الله استدل على منزلها وقرع الباب ففتحت له إحداهما فاستدعاها وخاطبهما قائلا : « إنى من أجلكما قد عانيت مشقة السفر ومتاعب البرية وما ذلك إلا شوقا لاعلم ماذا تصنعان وما هى حالة معيشتكما ، فقالتا له « هل يمكنك أن تجد صلاحا فى امرأتين متزوجتين يعيشان فى لذة ونعيم؟ » ، فألح عليهما فقالتا له : انا

إقترنا بسر الزواج مع أخوين من مدة خمس عشرة سنة وقد مضت هذه المدة بدون أن تخرج من فم الواحدة كلمة تغيظ الأخرى ولم يحدث بيننا خصام أو شبه خصام قط ، وأن الواحدة منا لا تميز أولادها ، عن أولاد الأخرى بل تهتم بما يرضى أولاد الاخرى قبل أولادها ، ثم قالتا له : « قد تعاهدنا أمام مخلصنا أن نعيش هكذا كل أيام حياتنا ونطلب منه تعالى أن يساعدنا على القيام بعهدنا ، فلما سمع القديس خبرهما هتف قائلا : حقاً ان الله يمنح المتزوجين كما يمنح المتبتلين وانه تعالى لاينظر إلا الضمائر والقلوب ويمنح روحه القدوس لجميع الذين يخدمونه .

هكذا نالت القديسة ثيؤدوره الفرح الدائم فى ملكوت السموات ، وتعيد الكنيسة للقديسة فى اليوم الرابع عشر من شهر بؤونة ، كما ذكر فى تاريخ القديسة بالمخطوطة بدير البرموس .

بركة صلاتها تكون معنا ولربنا المجد دائما أبدياً آمين .؟

† † †